عزلة الروح وسلوك الأخلاق
في زمن الحجر الصحي

Spiritual Seclusion and Moral Standards in Quarantine Time

PhD. LOUKILI El houssein

د. الحسين الوكيلي[1]

ملخص البحث:

ترتبط هذه الدراسة بالسياق العام للحالة الوبائية التي شهدها العالم، بسبب انتشار فيروس كرونا (كوفيد- 19) في أنحاء المعمور، وكان الحجر الصحي طوق نجاة للبشرية من هذا الوباء الفتاك، لكن ضوابطه الصارمة أحدثت شرخا في نفوس الكثير من الناس بسبب قواعد الحذر الوقائي الصارمة التي قلّصت عادات التواصل والتزاور بين الناس، وأوقفت حركية الفضاءات العمومية. لأجل ذلك أرادت الدراسة أن تجعل من العزلة فرصة لتصحيح السلوك البشري وتقويمه، وإعادة النظر في المعايير الأخلاقية التي تحكم العالم المتخلق بقيم الحداثة، حيث بدت أخلاقه في هذه الأزمة متناقضة وغير منسجمة مع روح الفلسفة التي بُنيت عليها هذه القيم. كما أنها دراسة تجعل من العزلة درسا في التأمل والتفكير العميقين، لكي تسمو الذات على كل النقائص، وتعلو على المكان من حيث هو تشكل جغرافي عن طريق الولوج إلى أرض الحقيقة الواسعة، أرض البدن التي أمرنا الحق أن نعبده فيها.

وقد خلصت الدراسة إلى أن البشرية أحوج ما تكون وقت الشدائد والكروب إلى عزلة ترتقي من خلالها سلم الأخلاق وصولا إلى الكمال، لأنها الإكسير الذي يمنح الإنسانية روحا جديدة، ويفتح في وجهها باب السفر إن هي أرادت أن تنفلت من ربقة المادي واليومي بحثا عن النوال في سماء المطلق.

[**الكلمات المفتاح:** خلوة الروح، الحجر الصحي، كوفيد19، العالم الفاضل، المناعة النفسية، الارتقاء الأخلاقي]

Abstract:

This study is related to the overall context of the current epidemiological situation that the world is witnessing due to the spread of the COVID19- pandemic across the globe. Quarantine was a lifeline for humanity against this deadly pandemic; however, its strict rules caused a rift in the hearts of many people due to its prohibiting nature. These rules

(1) دكتوراه في الأدب العربي - أكاديمي وأستاذ الدراسات العربية - فاس - المغرب.

made social distancing a priority; minimized contact and visiting habits among people, and suspended activity in public spaces. This paper deems isolation an opportunity to revise human behavior and rectify it. It also revisits the moral standards and values which imbue our modern world; values that seem inconsistent with the philosophical spirit upon which they have been constructed. Furthermore, this paper makes of isolation a lesson in contemplation and deep reflection that would transcend imperfections and geographical boundaries by reaching to the vast space of the body – the locus of the worship of God.

[**Keywords:** Spiritual seclusion; quarantine time; COVID19-; utopian world; spiritual immunity].

مقدمة:

عسير على النفس الانزواء عن عالمها المشبع ضجيجا وصخبا، وعسير عليها الالتزام بضوابط العزلة في زمن تسيطر عليه الآلة والتقنية، والعلاقات الاجتماعية المتجذرة حد التواشج المصطبغ بجنون الثرثرة والفوضى. والأصعب من هذا كله أن تستفيق البشرية كل صباح على أرقام، ونسب لها علاقة بعدد المصابين والمتوفين جراء هذا العدو الفتاك بعد أن أرخت الجائحة بظلالها القاتمة السوداء على كل أقطار العالم. فتحتّم على الإنسان الرضوخ لضوابط الحجر الصحي كرها لا طوعا. حفاظا على حياته، وحياة أفراد مجتمعه. لقد فرّ الإنسان من الساحات التي كانت تحتضن خيولا تجري بلا هوادة في معركة الحياة اليومية، فما عاد يسمع وقع سنابكها، ولا حتى رَفِيف لهاثها المفزع. وحده صوت الخواء، يعوي في دروب المدن وأزقتها، محدثا أزيزا ذابلا. كما هو أمر مدينة ووهان الصينية، وغيرها من مدن العالم التي كانت تنبض بحياة الغادين والرائحين، فتحولت إلى مدن أشباح. فلا تكاد ترى أحدا يتجول في شوارع المدن المقفرة أو تكاد تسمع له صوتا. وفي أحسن الأحوال إن حدث وسمعت، فإنك تسمع تصفيق المحتجرين وهم يطلون من شرفات المنازل رضًا بما تصنعه الأطقم الطبية المتصدية لهذا العدو المخاتل، ثم يعود الصمت ليخيم عليها من جديد.

هذا الانفصال النسبي عن العالم الخارجي المرصوع بصخور الألمنيوم الباردة، قد يكون مناسبة لتعزيز ماهية الذات الميتافيزيائية، كي تتخلى عن الهشاشة التي تسربل بها باطن روحها المتعب، وتتزيا بوشاح نوراني تستعيد من خلاله زمانها الغُفل، وبداياتها الأولى الطاهرة. وتُبيد غول الأنانية الذي عشش في دواخلها ردحا من الزمان.

حقا كثر الحديث اليوم، سواء في العالم الواقعي أو الافتراضي عن فيروس كرونا كوفيد19، وعن وسائل الوقاية والحماية منه، كما أنتجت خطابات متعددة حول أضرار هذه الجائحة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والنفسي، خصوصا وأنه في ظل هذا الوباء ما عاد بمقدور الإنسان أداء طقوسه الاجتماعية كما كان يفعل في السابق. فالمقاهي مغلقة كما صالات الرياضة، والمدارس أفرغت من تلامذتها وأطرها الإدارية والتربوية، ودُور العبادة خيم على أرجائها صمت رهيب بعد أن كانت ألسن المصلين تلهج فيها بالذكر والدعاء، والابتهال والتهليل والتسبيح. كما أن فريضة الحج لهذا الموسم ألغيت، فما عاد بمقدور من كان طموحهم حج بيت الله الحرام الذهاب إليه تحقيقا لإرادة القرب الروحي التي تسكن دواخلهم.

غاية هذه الدراسة - إذن- إيجاد خيط رابط بين الحجر الصحي زمن كرونا، وبين السلوك الصوفي الذي دأب عليه المتصوفة الأوائل، حين أقاموا طقس العزلة تقويما لسلوكهم وتصحيحا له وارتقاءً به. والحقيقة أن أسَّ السلوك الصوفي يتمظهر في العزلة التي يصير بها الحجر المنزلي فرصة لتشكيل حالة وعي صاح، ويقظة قلبية تتشكل من خلالها شخصية جديدة موجبة لا سالبة، فاعلة بقدر ما هي منفعلة، منفتحة على الحياة مع زهدها في الحسيات. ومحور الدراسة يعتبر الاثنين معا: الخلوة من منظورها الصوفي والعزلة الناتجة عن فرض الحجر الصحي وسيلتين لتعليم البشرية كيفية الإصغاء إلى نداءات الباطن. خصوصا وأن العالم الآن في زمن الجائحة بدأ يعي مشكلاته الأنطلوجية والحضارية أكثر من ذي قبل. ولعل عبارة: (انتهت حلول الأرض وبقيت حلول السماء) التي نطق بها أحد كبار مسؤولي العالم حين ارتفعت حالات الإصابة بالفيروس إلى الذروة، وتوسعت مساحة الجائحة لتشمل أبعد نقطة في العالم، تجسد هذا النزوع الروحي العفوي إلى السماء دون وعي أو إدراك.

تكمن راهنية الدراسة في استنطاقها لمفهوم العزلة من خلال ما تعيشه البشرية في الفترة الحالية من إقامة جبرية في المنازل، وتباعد اجتماعي تجنبا لنقل العدوى، والنظر إلى هذا العزل الصحي الذي فرضته جائحة كرونا بوصفه تجربة تأملية، وممارسة روحية رهانه إيقاظ العقل والقلب معا. كما أنها دراسة تتغيا البحث في المآلات الروحية والوجدانية للعزلة، وموازنتها بسلوك آخر عاشه المتصوفة الأوائل، حين عجزوا أن يمنعوا الناس ساعة حضورهم في مجلسٍ ما عن الكلام بالفضول، وبما لا يعنيهم. فأدى بهم هذا الحرج الأخلاقي إلى الزهد في عالم البشر، «فآثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذ الخلوات، وغلق بابهم عن قصد الناس إليهم، وبالسياحة في الجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية. فَنَفس الله عنهم من اسمه الرحمان، بوجوه مختلفة من الأنس به، أعطاهم ذلك نَفَسُ الرحمان. فأسمعهم

أذكار الأحجار، وخرير المياه، وهبوبَ الرياح، ومناطقَ الطير، وتسبيح كل أمة من المخلوقات، ومحادثتَهم معه، وسلامَهم عليه. فأنس بهم من وحشته، وعاد إلى جماعة الخلق»[1].

إن القابع في عزلته يمكنه أن يحقق استئناسا بعوالم غير التي يتيحها عالم الناس، بولوجه تجربة جوانية تطلعه على وهج المعاناة الذاتية التي بموجبها تصير الذات إلى أصل طبيعتها النورانية بعد أن تخلت عن كل الصفات السلبية الحاطة من قيمتها. فالعزلة بهذا المفهوم سلوك، والسلوك رحلة تسامٍ وارتقاء وبحث عن كينونة الذات، لتحقيق عملية النفاذ المباشر إلى بواطن الذات والوجود معا.

هذا، وقد حركت منطلقات الدراسة مجموعة من الأسئلة الوجودية والأخلاقية والفكرية تتمفصل في الآتي:

إلى أي حد يستطيع المعتزل في زمن كرونا إدراك كنه الخلوة للوصول إلى ذروة الاكتناه الوجودي؟ وما مدى إسهام الخلوة في إقامة عالم روحي ينضح حكمة وعنفوانا، سكينة وانتشاء، نوالا وعطاء، أنسا وفرحا؟ ثم ما المراقي التي يصعدها صاحب الخلوة ليجعل من الوحشة أنسا ومن ضيق المكان سعة؟ وأخيرا، أين تكمن راهنية الدراسة؟ هل في إثارتها لموضوع قديم انطلاقا من بعد لحظي يتخذ من الخلوة أداة للمقاربة، أم في تحيينها للوعي الصوفي بوصفه وعيا مُحسًّا، يرتبط بموقف الإنسان من ذاته، ومحيطه، ومن العالم ككل؟

المبحث الأول: العزلة انفصال عن العالم أم اتصال به؟

1. عزلة منزلية وخلوة روحية:

نشير بدءًا إلى أن «العزلة»[2] في الممارسة العرفانية سابقة على الخلوة، لكونها عتبة تُعِدُّ السالك إلى مقام الخلوة، مما يجعلها مُؤَسِّسة لعملية الانقطاع عن اليومي، بما يقوم عليه طقسها من اهتمامات روحية وفكرية تفصل صاحب العزلة عن العالم المادي. «فالخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات أهل الوصلة. ولا بد للمريد - في ابتداء حاله - من العزلة عن

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1980م، السفر الرابع، ص. 232.

(2) (توجب المجاهدة والرياضة في العزلة قبل الخلوة حتى تصيّر ذلك طبعا وعادة، ولا تحس النفس به كما لا تحس بالعادات فتدخل الخلوة عقيب ذلك، مستريحا نشيطا طيب النفس فارغا من المجاهدة خالي المحل من المكابدة مهيَّأ مفرغا للذكر المذكور) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م، ص.435.

أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه»[1]، وكأن العزلة تمرين يومي يبدأ بحالة وحشة وقنوط، ثم ما تلبث الذات أن تألف وحشتها بإزاحتها لكل الوسائط التي تعطل نشاط حواسها وفكرها. وهذا ما ألمع إليه أبو القاسم القشيري في النص أعلاه، حين أشار إلى أن العزلة من أمارات الوصل، إذ بواسطتها تتحرر الذات من أغلال المجتمع ومشروطياته.

ولعل التذمر الذي حصل لأفراد المجتمعات من العزلة المفروضة عليهم وهم محتجرون في بيوتهم عائد إلى طغيان النزعة الجماعية التي تجعل الفرد منصهرا في الجماعة، بحيث لا يرى ذاته إلا فيها ومن خلالها. على خلاف العزلة من منظورها الصوفي فهي ترتكز على ممارسة تواقة للوصول إلى قطع العلائق والتهيؤ لتجلي الخالق. وهذا مبعث القلق ومكمنه، إذ اعتاد أفراد هذه المجتمعات على تحقيق ذواتهم من خلال الجماعة. فعاشوا حالات حنين إلى الماضي القريب وحركيته الدؤوبة وفضاءاته العامرة، حيث كانوا يتجولون في الشوارع بكل أريحية دون حسيب أو رقيب، وينعمون بلقاء الأحبة ومصافحتهم، واحتساء كؤوس الشاي وفناجين القهوة في المقاهي، متفرجين على الغادين والرائحين. ثم ما لبثوا أن صاروا في رقعة جغرافية ضيقة لا يجدون من سبيل أمامهم سوى النوافذ للاطلاع على العالم الخارجي تبديدا لوحشتهم وترفيها على أنفسهم.

فإلى أي حد يمكن اعتبار النافذة زمن الحجر الصحي أداة تكسير لشوكة العزلة والتخفيف من حدة وطأتها؟ وهل يمكن اعتبارها تحطيما للفواصل القائمة بين الداخل والخارج.

2. نوافذ الأرض ونوافذ السماء:

إن الإنسان في علاقته بمحيطه، لم يكف عن إقامة جسور تجعله موصلا بهذا العالم، والنافذة واحدة من هذه الوسائط التي تمثل معبرا بين الداخل والخارج، منها تعبر خيوط شمس الصباح لتشع في زوايا المنزل نورا وضياء، وعلى زجاجها ترتسم حمرة المغيب فيكون التناوش والتذبذب حاصلا بين الحياة المتمفصلة في نور شمس الصباح المؤذن بالولادة، والموت المتمفصل في حمرة المغيب المؤذن بالنهاية. هذه النافذة ستصير في زمن الجائحة بوابة العالم، وملاذ القابعين في زوايا البيوت، نافذة تخترق جدران المنزل التي وقفت متصلبة أمام أعين من هم في منازلهم، لتُبدّد عزلتهم بما تمنحه لهم من مشاهد ومناظر، وهواء متجدد،

(1) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1989م، ص.196.

ونسمات ندية. ولأنها الملاذ والمأوى فقد صدحت أصوات من هذه الشرفات بالأغاني تارة، وبالأناشيد الوطنية تارة أخرى، وتارة ثالثة كانت تعزف ترنيمات موسيقية تشبه ترانيم القداس. وهذا يفسر حاجة الإنسان إلى العالم من حاجة العالم إلى الإنسان. وما رؤية العالم الخارجي من الشرفة إلا تجسيد لحالة احتياج إلى مكمل للذات يتمظهر في العالم بأشيائه وتفاصيله الصغيرة والكبيرة.

والحقيقة أن الحجر الصحي أطلع الإنسان على هذه الحقيقة وكشف له عن قيمته الحقيقية التي لا ارتباط لها بالزعم القائل: أنا الأعظم والأقوى وأن لا عالم من دوني. إن وقوف المحتجرين أمام شرفات المنازل مدة من الزمن في كل يوم يفسر هذا الاحتياج إلى العالم الخارجي الذي يعانقون من خلاله جزءا من ذواتهم وكيانهم وعالمهم. وليست نافذة المنزل لوحدها شكلت ملاذا في هذا «العصر الكروني»، بل حتى نوافذ العالم الافتراضي (فيسبوك - إنستغرام..إلخ) التي جعلوها قنطرة عبور من عالم الحجر الواقعي إلى العالم المرقمن الذي بدا التجمهر فيه ممكنا دون خوف من العدوى. لكن خطابات المجال الرقمي اصطبغت هي الأخرى بلون كرونا، فتأرجحت بين خطابات الفكاهة والسخرية والمرض والإرشاد والتحسيس من مخاطر هذا الوباء. وتبقى تيمة العزلة هي قطب الرحى الذي تدور عليه وحوله جميع خطاباته، فيكون فرار الإنسان إلى هذه النوافذ بمثابة تذكير له على ضرورة المكوث في البيت والالتزام بقواعد الحجر الصحي.

الملاحظ أن الإنسان يشعر بنقص في حريته رغم وجود كل هذه النوافذ، لأنها لا تستطيع تعويض نمط حياته السابقة. فالحجر الصحي يمنعه من ارتياد فضاءات العالم الخارجي والقيام بأنشطته اليومية كما كان يقوم بها في السابق، ومعايشة مناخ الأجواء الاجتماعية تفاعلا وانفعالا. والحق أنه لا المشاهدة التي تمنحها له نافذة المنزل، ولا التي تمنحها له نوافذ العالم الافتراضي، قادرة على تعويض شساعة المدى، الذي يجعل العين الرائية تبصر فضاء مركبا من أمشاج متعددة، وسحنات مختلفة. كما أن نوافذ الأرض لن تستطيع تعويض سياحته في ملكوت الله وتجواله في أرضه. هكذا يبدو الإنسان متقلبا بين الحضور والغياب، محمولا على جناح الأنس تارة، وتارة أخرى على جناح الوحشة والاغتراب.

والسؤال الذي يجب أن يطرح في هذا المقام. هل عزلة البشرية في زمن الحجر الصحي تشبه عزلة المتصوف وخلوته؟ وهل للمكان الذي يختلي فيه الصوفي نوافذ؟ وإن حصل وكانت له نوافذ هل هي نوافذ أرضية أم سماوية؟ هنا نحب أن نشير إلى أن نوافذ الأرض التي

لجأ إليها المحتجرون وقت الإقامة الجبرية في المنزل ليست كنوافذ الصوفي الذي يعتلي من خلالها صهوة المطلق. فهذا ابن عربي الصوفي والفيلسوف يؤسس لعزلة خاصة تنمحي معها حالة الوحشة والقنوط؛ لأن لها نوافذ مفتوحة على السماء وعلى اللامحدود. وقد سماها بعزلة العلماء بالله، لكونها تختلف عن عزلة عامة الناس لاصطباغها بالأنس والنوال والفتح. ففي الباب الثمانين من فتوحاته المكية عمد إلى التمييز بين العزلتين. يقول: «فمن اعتزل فلتكن هذه العزلة بغيته، فهي عزلة العلماء بالله، لا هِجرانُ الخلائق ولا غلقُ الأبواب وملازمة البيوت. وهي العزلة التي عند الناس: أن يلزم الإنسان بيته، ولا يعاشر، ولا يُخالطَ، ويطلب السلامة ما استطاع بعزلته، ليسلم من الناس ويسلمَ الناس منه. فهذا طلب عامة أهل الطريق بالعزلة»[1].

إن المستوى الأولي من العزلة، (عزلة عامة الناس) يشير فيه إلى لزوم البيت، والابتعاد عن معاشرة الناس، لكن لا يعني - بأي حال من الأحوال - الانطواء أو التقوقع؛ بل هي محاولة المعتزل العلو على نفسه حتى لا تُستغرق ذاته في ذوات أُخرى، أو حتى لا تُستغرق في العالم الموضوعي. وإذا كان هذا حال العزلة العادية التي هي دون عزلة العلماء بالله؛ فإننا يمكن اعتبارها شرطا ضروريا للانتقال إلى المستوى الثاني من العزلة. يقول ابن عربي: «ثم إن ارتقى المعتزل إلى طور أعلى من هذا، فيجعلُ عزلته رياضة وتَقْدِمةً بين يَدَيْ خلوته، لتأتلف النفس قطع المألوفات من الأنس بالخلق، فإنه يرى الأنس بالخلق من العلائق والعوائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الأنس بالله والانفراد به»[2].

هذا المستوى الثاني من العزلة، يخلص الذات من الاتصال بالآخر، وبالعالم الموضوعي أيضا؛ لأنه لم يعد للشرفات والنوافذ التي كان يستنجد بها المحتجرون زمن كرونا أي دور أو قيمة. أو لنقل بعبارة واضحة: إن العزلة الحقة هي التي تعمل على إرجاع الإنسان إلى خصوصية كينونته، لتحقيق حريته باعتبارها عبودية كاملة. ذلك أنه بقعود العارف في بيت شيئيته، وتربعه على عرش الوجود التَّنسكي، تنمو شخصيته، ويتشكل تفرده، وتُبنى أصالته. يقول ابن عربي عن المعتزل: «فرجع العبد إلى خصوصيته، وهي العبودية التي لم تزاحم الربوبية، فتحلى بها وقعد في بيت شيئية ثبوته لا بشيئية وجوده، ينظر تصريف الحق فيه، وهو معتزل عن التدبير في ذلك»[3].

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 379/13.

(2) المصدر نفسه، 13/ 379-380

(3) المصدر نفسه، م.س، 378/3.

والحقيقة أنه ما إن يتجرد العارف من العالم المرجعي المتمفصل في الحياة اليومية، حتى يزداد شوقه إلى عالم الخلوة الأكثر عمقا، والأشد أصالة. فتكون عزلته رياضة، وتقْدِمَة بين يدي خلوته لتحقيق الاتصال الروحي الصادق. آية ذلك، ما أشار إليه الشيخ الأكبر بالقول: «فإذا انتقل المعتزل من العزلة بعد إحكامه شرائطها، سَهُلَ عليه أمر الخلوة. وهذا سبب العزلة عند خاصة أهل الله».(1)

نفهم من هذا الكلام أن العزلة هي عتبة الانفصال عن العالم الموضوعي الشّائِه، وأن الخلوة هي نافذة السماء التي يُعبر من خلالها إلى فضاء الروح الشاسع، يلجه المُختلي بناءً على ما اكتسبه في عزلته من رياضات، واستعدادات، وتهيؤات نفسية وروحية. وهذا ما يجب أن يحصل الآن زمن الحجر المنزلي؛ لكي تتحول الذات في عزلتها من ذات تعاني استعبادا واحتلالا ماديين، إلى ذات مستقلة وحرة، لا تنتظر ضوءا ينبعث من العالم الخارجي لكي ترى وتبصر وتتحسس ما حولها. كما لا تنتظر مُتّكأ لتسند عليه ظهرها وتستريح من التعب المادي الذي تغشّها وتلبّسها. ذات تكتفي بعالمها الداخلي الذي لا تحيط به أسوار، ولا تحدّه تخوم وحدود، عالم لا تحتاج عملية اختراقه إلى تذاكر سفر وجوازات عبور.

المبحث الثاني: العزلة تهذيب للنفس أم تعذيب لها

1.العزلة نقد ذاتي وكسر لشوكة النرجسية:

إذا كانت العزلة في حالتها البدئية ترتبط بالانعزال عن بني البشر، فإن غايتها سلامة الناس من شر المعتزل وأذاه، وليس سلامته هو من شر الخلق. وهذا يدل على أن المعتزل يستصغر نفسه ويتهمها، ولا يدعي بعزلته أفضلية على أحد، أو تكبرا أو حيازة رياسة ووجاهة. «ومن حق العبد -إذا آثر العزلة- أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول من القسمين: نتيجة استصغار نفسه، والثاني: شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر(2).

ومسألة كف الأذى، والسلامة من الشر، نتيجتان من نتائج العزلة الإيجابية على المجتمع. أو إن شئنا قلنا: إن العزلة تعمل في كثير من الحالات على ضبط حركية المجتمع، والتقليل من

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 380/13.
(2) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص.196.

حدة الفوضى التي تحيط به. فبدون حجر صحي، كان العالم في زمن كرونا سيعيش أبشع سيناريوهات البؤس والذمار. ولعل الدول الذي تأخرت في تطبيق الحجر عاشت ما عاشته من مآسٍ وانتكاسات. فالخطاب الصوفي يضع الذات موضع تهمة وتساؤل وتشكيك ولوم وعتاب. أي أن المعْتزل بعزلته يقف من نفسه موقف الخصومة. فلا يرى لها من سلوك مشين إلا اعتبره من عيوبها التي جبلت عليه، ساعيا إلى تصحيح المسار الأخلاقي للذات عن طريق عزلها عن الناس وتربيتها. وفي هذا ممارسة للنقد الذاتي، وحماية للمجتمع من الأذى الذي يمكن أن يمس الخلق على حين غفلة من الذات.

والحق أننا اليوم في زمن الجائحة، أحوج ما نكون إلى هذا السلوك الصوفي الرفيع. فالعزلة ليست رهبنة، وإنما هي حراسة النفس حتى لا تؤذي أحدا. فقد حدث أن ذكر القشري في رسالته أن رجلا كان في عزلة: فقيل له إنك راهب. فقال: لا بل حارس كلب (يقصد نفسه)، إن نفسي كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ليسلموا منها»[1]. فلو أدركت البشرية معاني هذا الخطاب ودلالاته في زمن الجائحة لكانت تداعيات الجائحة أهون مما هي عليه الآن. ولتمت محاصرة الوباء في ظرف زمني قصير. ولعل هذا الأمر يبين بما لا يدع مجالا للشك، جدوى الخطاب الصوفي زمن الأزمات والأوبئة. لقد كان هذا الخطاب وما يزال حاملا لتباشير الخلاص من الانمساخ والعبثية، وموقظا في هيكل العالم المادي الذي يعاني بطالةً روحية وتقشفا أخلاقيا رعشة الحب والتآخي والتسامح والزهد.

هذا التصور يجعلنا نطرح تساؤلات عن مدى تمثل البشرية لفلسفة العزلة كحل ناجع زمن الجائحة؟، وهل ثمة علاقة بين العزلة وانحسار الوباء وانحصاره؟. الحقيقة أن فلسفة الخلوة في التصور الصوفي ارتبطت أساسا بكف الأذى عن الناس، وتحصين الروح بجعلها ترقى مراقي متاخمة للمطلق. يذكر أبو القاسم القشري في خصوص كف الأذى أن إنسانا «مر ببعض الصالحين، فجمع ذلك الشيخ ثيابه منه. فقال له الرجل: لِمَ تجمع عني ثيابك، ليست ثيابي نجسة؟ فقال الشيخ: وهمت في ظنك، ثيابي هي النجسة، جمعتها عنك لئلا تنجس ثيابك، لا لكي لا تنجس ثيابي»[2].

يطلعنا هذا الكلام على درس في الوقاية، فالنجاسة في هذا المقام لا تنحصر في دائرة القذارة والدناسة والوساخة، بل تنفتح على كل ما يؤذي البدن والثوب والنفس. أي كل ما

(1) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، م.س، ص.196.

(2) المصدر نفسه، ص.196-197.

من شأنه أن يلوث طهارة هذا العالم ويعكر صفاءه. بعبارة أخرى: إن الخطاب الصوفي يضعنا أمام سلوك أخلاقي يراعي مصلحة الآخر قبل مصلحة الذات، ومصلحة الجماعة بمفهومها الكوني، قبل مصلحة الفرد. وهذا ما يجب أن يكون في زمن كرونا على مستوى السلوك الوقائي الجمعي الذي يمنع انتشار الوباء ويقلص من دائرة تمدده، سواء بارتداء الكمامة إن كان الخروج اضطراريا، أو بتجنب رمي النفايات في غير الأماكن المخصصة لها، أو بنقع الكمامة في محلول معقم بعد الخلع ثم التخلص منها في سلة النفايات حتى لا تلحق الأذى بعمال النظافة. إن إشاعة هذا النوع من السلوك يشبه ما قام به الشيخ حين كَفَتَ ثوبه حتى لا ينجس ثياب الرجل الذي مر بمحاذاته، أي أن السلوك الوقائي سلوك عرفاني يتغيا كف الأذى عن الناس زمن الأوبئة، كما يروم الحد من انتشار الفيروس في حالة الخروج، وإن كان أصل السلوك عزلة وابتعاد عن عالم الناس.

2. العزلة سبيل تشكيل الهوية العرفانية:

نحب أن نلمع إلى مسألة غاية في الأهمية، تتمظهر في أن العزلة بما هي «اعتزال للخصال المذمومة»(1) كما سبق وبينا، تصير سبيلا نحو تشكيل كينونة الصوفي وشخصيته وهويته العرفانية وحصانته النفسية، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال خلع الحق على عباده بالتخلق بأسمائه الحسنى والتعبد بها، فيصير الإنسان مختصرا شريفا لهذا العالم الكبير. يقول ابن عربي «فإن تَسمَّى مَنْ هذه حالته بأيّ اسم كان فالله مُسَمِّيه ما هو تَسمَّى، وليس له ردُّ ما سماه الله به. فتلك الأسماء الإلهية هي خلع الحق على عباده. وهي خِلعُ تشريف، فمن الأدب قبولها لأنها جاءته من غير سؤال ولا استشراف. وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخذ مثل هذا العطاء وترك ما استشرف النفس إلى أخذه وتمنِّي ذلك بالاستطلاع إليه. ووقف عند ذلك على أنه في الحقيقة كان العبد غاصبا لله فيما كان يزعم أنه له فإذا هو لله. وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَيهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود/121). فأخذ منه جميع ما كان يزعم أنه له، إلا العبادة فإنه لا يأخذها إذا كانت ليست بصفة له»(2).

يكشف هذا التصور عن مركزية العزلة في صقل شخصية العارف، وتجذير كينونتها وتعميقها، وإعطائها بعدا غير الذي كانت عليه في عالمها الموضوعي، حتى يصير الإنسان بموجب

(1) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، م.س ص.196-197.

(2) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 378/13.

هذه الشخصية مختصرا شريفا للعالم الكبير. ذلك أنه إذا كان نرسيس قد عمل على توكيد ذاته ووجوده الأنطلوجي، من خلال إعجابه الشديد بصورة الماء التي جاءت مطابقة لتشكله الفيزيائي، بعدما استقبلت عينه ظلال الذات المتجلية على صفحات الماء، إمعانا منه في تكريس هويته، وضبط إيقاع وجوده المنتقل من وضعية جسد في أصله الطبيعي، إلى وضعية ترويض ثقافي أخذ أشكالا من الحضور، فإن الصوفي العارف يعمل على توكيد ذاته، ووجوده العرفاني، من خلال الوهب الرباني الذي يمنحه تسمية، وهوية، ووجودا. أولنقل: إن اللبوس النوراني الذي يخلعه الله على العارف في عزلته، يكسبه وجودا حقيقيا يخالف الوجود المزيف الذي كانت عليه الذات في العالم الموضوعي. ذلك أن الإنسان في عالمه الخارجي قد يخلع عليه أسماءً لها دلالة على الجِنِّية، أو الرحمة، أو الجود، أو غيرها من الأوصاف، لكن أناه الأصلية تكون على خلاف ما هي عليه أناه المزيفة المخاتلة. وحدها الأزمات والأوبئة تعري معدن كل إنسان، وتكشف عن زيف سلوكه الإنساني. خصوصا وأننا قد شاهدنا عند بداية انتشار الوباء تزاحم الناس على المحلات التجارية لأجل اقتناء المواد الغذائية لتكديسها في المنزل تحسبا لما سيأتي مستقبلا. هلع الاقتناء جعل ثمن السلع يرتفع، مما زاد من حدة الاحتقان الطبقي وزاد من إفقار الفقير وإضعافه.

ولو أمعنا النظر في هذا السلوك الأناني المُجَسَّد في هلع الاقتناء وتكديس السلع، لأدركنا الوجود المزيف للذات التي لم تستطع أن تجعل من العزلة المفروضة عليها فرصة لصقل شخصيتها، وتحصين نفسها من شهوة المادي، كي تتزيّا بالسلوك الأخلاقي قبل السلوك القانوني الذي لا يمكنه أن يمارس رقابة على ضمير الإنسان، على خلاف الأخلاق التي تستطيع ذلك، وتمنع من الوقوع في مثل هذه الوضعيات الحاطة من إنسانية الإنسان ونبله. حقا لقد كشفت جائحة كرونا عن زيف الأخلاق، وعرّت سوأة العالم، بعدما شاع في الأوساط المجتمعية هذا السلوك الأناني المجافي لكل القيم الأخلاقية. سلوك الحيازة والتملك هذا يتضارب مع الشعارات البراقة التي كانت البشرية تتبجح بترديدها في المحافل قبل زمن كرونا.

والحقيقة أن العزلة من منظورها الصوفي بوصفها رياضة ومجاهدة هي المشكلة للسلوك الأخلاقي، فالعزلة الحقة رياضة، وزهد، وقناعة. بها ومن خلالها يتشكل كيان إنساني آخر متخلّق بالأسماء الإلهية. «فتلك الأسماء الإلهية هي خلع الحق على عباده. وهي خلع تشريف»[1]. على هذا الأساس كان قبول الهبة استكمالا لسلوك السالك وارتقاء به إلى مقامات الكمال

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 378/13.

لبناء روح جديدة وأخلاق فاضلة لها إحساس بالآخر الجائع، والمحتاج، والمهمش الذي يفترش الأرض ويلتحف السماء.

3. عالمية العزلة وعلاقتها بالعالم الفاضل:

أدرك المتصوفة الجدوى من العزلة، خصوصا فيما ذكرناه من ارتقاء بالسلوك، وتجديد للروح، وسمو بالأخلاق، فجعلوها كونية عالمية لا ترتبط بدين أو عقيدة. ذلك أنه إذا أمعنا النظر في تضاعيف ما دوّنه الشيخ الأكبر ابن عربي، وجدناه يقدم تصورا للخلوة يبدو على قدر كبير من الفرادة. فهو يَسِمُها بالشمولية والإطلاق تارة، وتارة أخرى يقيدها. وهو في هذا وذاك، يعتبرها طريقة في الحياة، ومنهجا في التعايش، دون أن يجعل هذه الممارسة العرفانية حكرا على مذهب من المذاهب، أو ملة من الملل. ولنا في السِّفر السادس من فتوحاته جواب على هذا الأمر. يقول: «ولقد أفردنا لهذه الطريقة خلوةً مطلقة غير مقيدة في جزء، يعمل عليها المؤمن فيزيد إيمانا، ويعمل بها وعليها غير المؤمن من كافر ومعطِّل ومشرك ومنافق. فإذا وفّى العمل عليها وبها، كما شرطناه وقررناه، فإنه يحصل له العلم بما هو عليه في نفسه. ويكون ذلك سبب إيمانه بوجود الله، إن كان معطِّلا، وبتوحيد الله، إن كان مشركا، وبحصول إيمانه إن كان كافرا وبإخلاصه إن كان منافقا أو مرتابا»(1).

نلمح في كلام ابن عربي هذا إشارة خفية، مفادها أن طقس الخلوة يسهم في بناء عالم فاضل حر، مبني على الاختيار الطوعي لا الإلزام الإكراهي. وهذا المبدأ قد أعادت كرونا إحياءه من جديد، فالمكوث في البيت يجب أن يكون منبثقا عن وعي ذاتي، لا عن أمر إلزامي يكره الذات على البقاء في بيتها. ففي حالة الاختيار الطوعي تصير الذات شاعرة بنفسها، ومحسة بعالمها الباطن، نتيجة نشاطها الخاص الممثل في العزلة. حيث «لا يعتزل إلا من عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه»(2).

ولتحقيق هذا المطلب ألح ابن عربي على ضرورة العمل بالشروط التي سيضعها أمام كل مقبل على هذه الخلوة تحقيقا لفاعليتها. يقول: «فمن دخل تلك الخلوة، وعمل بتلك الشرائط كما قررنا، أثمرت له ما ذكرناه. وما سبقني إليها أحد في علمي، إلا إن كان وما وصل إليّ. فإن الله لا تحجير عليه، ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاء﴾ (البقرة/268)، فإني أعلم أن أحدا من أهل

---

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 6/75-76

(2) المصدر نفسه، 13/373.

الطريق ما يجهلها، إن كان صاحب كشف تام، ولكن ما ذكرها ولا رأيت أحدا منهم نبَّه عليها إلا الخلوات المقيدة»[1].

والذي يهمنا من هذا كله، أن الخلوة المطلقة غير مخصوصة بدين أو عقيدة، وإنما هي فضاء مفتوح على الآفاق، أبوابه مشرعة في وجه جميع البشر، يدخلها المسلم وغير المسلم. فهي خلوة روحية عالمية تتساوى فيها الألوان الإيديولوجية والطوائف والمذاهب. أو لنقل -بمنطق المخالفة - بدل المماثلة والتساوي-: إنها خلوة تعلو على كل التحديدات والتصنيفات الإيديولوجية الجاهزة، لتفصح عن هوية إنسانية عالمية تحتضن تجربة الإنسان وهو ينصت إلى البعيد القصي لينعتق من آلة الزمنية والعبثية، أو ليعلو على الكثيف والرتيب والمسكوك، وهذا هو السر الذي دعانا لوسمها بعزلة الروح. لأن الجسد يبقى في ركن البيت، لكن روحه تحلق في عوالم الطهر والكمال.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن العزلة أو الخلوة هي المدخل الفعلي لتجربة الصوفي الروحية؛ لأنها تعتبر سلوكا ميتافيزيقيا متعلقا بالكائن البشري العرفاني، موسومة بالكونية، غايتها إيصال الإنسان إلى لحظة صفاء مشرقة يكتشف فيها نفسه، ويتحرر في الآن نفسه من أغلال العالم المتناهي، إذ بدخوله إلى حضرة الحق تفتح أمام ذاته آفاقا رحبة لا تعرف الانتهاء والمحدودية. ويصير سلوكه في الحياة مهذبا وخاضعا للمراقبة الذاتية، «فإذا انفصلت من عالم التكليف وموطن المعارج والارتقاءات حينئذ تجني ثمرة غرسك»[2]. والحقيقة أنه إذا كانت جائحة كرونا قد فرضت قسرا تغيير السلوك اليومي للإنسان، فإن الخلوة علمت الصوفي أن يكون منضبطا للقيم الأخلاقية طواعية دونما إكراه أو إلزام. فالعزلة الواعية بهذا المفهوم هي درء لكل قبيح ومشين، وطريق لمعرفة الذات الإنسانية وهويتها الآدمية الحقيقة، المغمورة تحت ركام الغفلة والجهل.

المبحث الثالث: قطوف العزلة

من نافل القول أن أذكر أن التصوف يرتكز على الإلهام والكشف الروحي، لأنهما سبيل تمحيص الحقائق الروحية. لذا حري بنا أن نميز بين الوحي الذي كان يتلقاه الرسل والأنبياء وهم في حالة خلوة، وبين الكشف الذي يلج من خلاله (الصوفي المختلي) العالم المفارق للعالم

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 76/6.

(2) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.153.

الموضوعي طلبا للواردات والسوانح، وبين كشف آخر يحصل للمبدعين والمثقفين الذين أرغموا على البقاء في المنزل بسبب الوباء الذي حل بالعالم فوجدوا في العزلة فرصة سانحة لإنجاز مشاريعهم البحثية أو الإبداعية. والجانب المفارق في الخلوتين. أن الصوفي حين يلج خلوته يحس بحرية جديدة لم يعرفها من قبل. حرية وجدانية متسامية على اللحظي والآني، على خلاف غير الصوفي الموجود في إقامة جبرية؛ فإن ممارسته الفكرية تتأثر بالجو العام الذي يحكم عزلته، فيُنْتِج في الغالب خطابات تدور موضوعاتها حول جائحة كرونا ولا تخرج عنها إلا في حالات بعينها خدمة لالتزاماته الأكاديمية ومشاريعه البحثية. أي أن الغاية من العزلة لم تتحقق؛ لأن الوسائط ما تزال فاصلة بين الذات والعالم المادي الذي تتفاعل معه في عزلتها. يقول ابن عربي: «وإذا فهمت هذا، فاعلم وفقنا الله وإياك، أنك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحق والأخذ منه بترك الوسائط والأنس به، أنه لا يصلح لك ذلك وفي قلبك ربانية لغيره، فإنك لمن حكم عليك سلطانه. هذا لا شك فيه، فلابد من العزلة عن الناس وإيثار الخلوة عن الملأ، فإنه على قدر بُعدك من الخلق يكون قربك من الحق، ظاهرا وباطنا»(1).

الملاحظ أن ابن عربي أسس لثنائيتي الحضور والغياب من خلال طقس الخلوة، حيث يصير الحضور غيابا، والغياب حضورا. ولا يتسنى للصوفي بلوغ عالمه الجديد هذا إلا بالغياب عن عالم الأرض الناقص (العالم السفلي)، عالم المصالح، والصفقات، والحسابات الضيقة لأصحاب القرار التي تأخذ بعين الاعتبار مآلات الوضع الاقتصادي بعد الجائحة، وأثره على الحضارة الرأسمالية وعلى اللعبة السياسية الدولية القائمة على الثنائية الضدية مُهَيمِن ومُهَيمَن عليه. لقد شاخت أغنيات هذا العالم، وبُحَّت وشوشاته التي كانت تسرد قصة ميلاد الضوء من الزمردة الخضراء، وَذَوَت ترنيماته التي كانت تحكي عن لحظة انبجاس النبع من صحرائه المقفرة. وما دام الأمر كذلك، فالعزلة تحرير من قيود هذا العالم، وتحرير من قيود الجسم الذي بدا سجينا في منزله المظلم، يشكو الوحشة والكآبة والملل. والحقيقة أنه «كلما كانت الروح غارقة في وجودها، سجينة في جسدها، فمعنى ذلك أنها ما تزال منفية. أما حينما تتحرر من أسر الجسد، فإنها تنطلق في عالم الحقيقة اللامتناهي، حيث النورُ والصفاء. فهناك فقط تستوي المتناقضات وتتوحد، وتحيا الأشياء جميعا في اتساق أزلي خالد»(2). فالغياب - في هذا المستوى- هو غياب عن المادي، وتجاوز للحظي، والواقعي والكثيف، بحثا عن الممكن

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، الصفحتان: 153-154.
(2) عدنان الحسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1979، ص.25- 26.

واللطيف. ورغم أن الخلوة حالة حدسية فإنها ترتكز قواعد لا تتأتى إلا بها سنتعرف عليها في القادم من البحث.

1. الخلوة ارتقاء بالسلوك العرفاني:

إذا رجعنا إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وجدنا الجذر اللغوي (س.ل.ك)، «يدل على نفوذ شيء في شيء. يقال: سلكت الطريق أسلكه. وسلكت الشيء في الشيء أنفذْته»[(1)]، مما يعني أن السالك في طقس الخلوة، يخترق التخوم الفاصلة بينه وبين المحدود والمطلق، حيث يصير المشي قدر السالك اللذيذ بعد أن خلع نعليه، وخطا خطواته الأولى على بساط السماوات، في رحلة أبدية تجترح النهايات والأقاصي.

والحقيقة أن الرحلة الباطنية التي يقوم بها العارف، لا تتأتى معالمها إلا بانتهاج طريق السالكين، تطهيرا للنفس من الأدران المتلبسة بها. لذلك اشترط ابن عربي من ضمن ما اشترطه، طهارة الباطن والظاهر معا. «فأول ما يجب عليك. طلب العلم الذي به تقيم طهارتك، وصلاتك، وصيامك وتقواك، وما يفرض عليك طلبُه خاصة لا تزيد على ذلك، وهو أول باب السلوك»[(2)].

هذا المسلك التعليمي يشكل منارات هدًى لكل سالك، وكأني بابن عربي وهو يحث المختلي في مرحلته الأولى على تطبيق تعاليم الدين الظاهرة، من طهارة، وصيام، وتقوى، تحصينا واستعدادا للمرحلة القادمة التي تقوده إلى المركز، حيث الحقيقة الباطنية للوحي الإلهي. ذلك أن السالك في هذا المستوى هو سالك بنفسه «يحاول التقرب إلى الله ابتداءً، ويكون التقرب بالفرائض والنوافل الموصلة إلى محبة الله تعالى. ثم العمل به، ثم الورع، ثم الزهد، ثم التوكل، وفي حال من أحوال التوكل يحصل لك أربع كرامات»[(3)].

إن المختلي بعد أن أخذ كل الشروط الموجبة لدخول حضرة الحق، من رياضة، ومجاهدة، وإحساس مرهف، وتهيؤ نفسي لقبول الواردات، سينتقل إلى مقام أكثر حساسية وخصوصية، لارتباطه بالمِنح التي تُعطى له على شكل (كرامة)، إكراما ومنّة من الله لعبده المختلي. وقد

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الجزء الثالث، مادة:(س.ل.ك)

(2) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.154.

(3) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، م.س، ص.585.

حصرها ابن عربي في أربعٍ. «هي علامات وأدلة على حصولك في أول درجة التوكل، وهي طي الأرض، والمشي على الماء، واختراق الهواء، والأكل من الكون، وهو الحقيقة في هذا الباب، ثم بعد ذلك تتوالى المقامات والأحوال والكرامات والتنزلات إلى الموت»[1].

والحق أنه لا يجب علينا أن نفهم من الكرامات الممنوحة للمختلي، على أنها سلوكات خارقة للعادة، تصدر من لدن السالك نتيجة تقيده بشروط الخلوة، أو نتيجة انضباطه الروحي لطقوس العزلة، حين يمشي على الماء ويخترق الهواء وتطوى له الأرض ويأكل من الكون. وإن حصل وفهم أحد هذا الفهم، فهو غير مدرك لخصوصية الخطاب الصوفي، ولا إلى طريقة تشكل دلالاته. كما هو شأن من أسماهم ابن عربي بعلماء الرسوم الذين اكتفوا - في تأويل خطابه- بظاهر العبارة دون باطنها. لذا وجب علينا التنبيه إلى أن ما أشار إليه ابن عربي أعلاه إنما هو محاولة لِرَجّ ألفة المسكوك تجاوزًا للسائد، حتى يتسنى له إحداث نوع من التوازن بين المادي والروحي. أي أن حياة الصوفي اليومية يجب أن تتناغم وتتواشج مع حياته الروحية، إذ لا تناقض بين المادة والروح في عالم التصوف. وإن شئتم قلنا: إن السلوك الداخلي للصوفي، يتماهى مع سلوكه الخارجي ساعة خروجه إلى الناس. فيحيل طي الأرض في رمزيته العرفانية على السفر في رحائب الكون، إما تأملا، أو بحثا عن طيف هارب. ويحيل الأكل من الكون – عرفانيا -، على اللحظة التي ينكشف فيها غطاء الأسرار عن الكون، فتشرق على قلب المختلي أنوار الحقائق لتطمس كل ظلمة وسديم. أما المشي على الماء فيحيل على دماثة خلق السالك وخفة ظله، وصبره على أذى الناس، وتطهير دواخله من نوازع الأنانية والشر. كما في قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان/63).

ولعل اشتراط التأدب الروحاني الذي تمنحه الرياضة قبل دخول الخلوة، مرده إلى هذا الجانب السلوكي. آية ذلك التعليمات التي وجهها ابن عربي للسالك المقبل على دخول الخلوة، حيث قال له: «وإن كان وهمك تحت سلطانك فخذ الخلوة ولا تبالي وعليك بالرياضة قبل الخلوة. والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق وترك الرعونة وتحمل الأذى. فإن الإنسان إذا تقدم فتحه قبل رياضته، فلن يجيء منه رجل أبدا إلا في حكم النادر»[2].

هكذا سينتقل السالك، من سالك بنفسه، إلى سالك بربه. والسالك بربه «هو الذي أحبه الله، فكانت عينه ثابتة في العدم، والحق سمعه وبصره»[3].

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.154.

(2) المصدر نفسه، ص.154.

(3) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، م.س، ص.587.

2. الخلوة غيبة عن أحوال الخلق:

لقد أبانت كرونا بالملموس، كما أبانت الأوبئة التي عرفها تاريخ البشرية في عهود فائتة، أن هذه الطوارئ بإمكانها حبس آلاف الملايين من الناس في منازلهم، لكن ليس بإمكانها فرض عزلة حقيقية عليهم ما لم يكن لهم استعداد لخوض غمارها. وحدهم المتصوفة أبدعوا في طقس العزلة حين جعلوها كشفا يتجاوز ضيق المكان الذي هم فيه محتجزون، والكشف «عند أهل السلوك هو المكاشفة. ويطلقون المكاشفة على رفع الحجاب الذي يكون بين الروحي والجسماني، والذي لا يمكن إدراكه بالحواس الظاهرة. وقد تطلق المكاشفة على[1] (المشاهدة) أيضا»[2]. فقد كان جواب ابن عربي للسائل الذي يسأل: «ما المكاشفة؟ قلنا: المكاشفة هي تحقيق الأمانة بالفهم، وتحقيق زيادة الحال، وتحقيق الإشارة التي تعطيها المحاضرة»[3].

قد يسأل أحد. ما الجامع بين الخلوة والكشف؟ وهل حقا الكشف ثمرة الخلوة وبركتها؟

نقول: إنه من دون كشفٍ، ما كان السالك ليَقْدِرَ على استبعاد كل فكرة، أو خاطرة لها علاقة باللحظي المعاش، وبالمخلوقات وأحوالهم. ولا ليقدر على تعويض غياب الذات عن الخلق، بالدخول في حضرة الحق. هكذا يتم إبطال قُوى الفكر الواعي جميعها، فتدفن في تربة العبودية الحقة. أمر كهذا يجعل المختلي مُعْرِضًا عن كل شاغل يمكن أن يشغل قلبه، أو يمنعه من الاندساس في طقس الحضرة. والنتيجة هي الإحساس بالعالم الموضوعي رغم انعزاله عنه، لكن هذا الإحساس لا يدفعه إلى الانشغال بأحوال الناس وشؤونهم الحياتية. يقول ابن عربي: «فأول ما يفتح عليك إن إعطاء الأمر على الترتيب ما أقوله لك: وهو كشفك عالم الحس الغائب عنه، فلا يحجبك الجدران ولا الظلمات عما يفعله الخلق في بيوتهم، إلا أنه يجب عليك التحفظ من أن تكشف سر أحد عند أحد إذا أطلعك الله عليه، فإن بُحت به وقلت هذا زانٍ، وهذا شارب، وهذا يغتاب، فاتهم نفسك؛ فإن الشيطان قد دخل عليك متحقق بالاسم (الستّار)، وإن جاءك ذلك الشخص فانْهَهُ ما بينك وبينه على الستروأوصه أن يستحي من الله ولا يتعدى حدود الله، والْهُ عن هذا الكشف جهد طاقتك واشتغل بالذكر»[4].

(1) يجب ابن عربي السائل عن معنى المشاهدة: (فإن قلت: وما المشاهدة؟ قلنا: المشاهدة رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، وتكون أيضا - أعني المشاهدة- رؤية الحق في الأشياء، وتكون أيضا حقيقة اليقين من غير شك. وهي تتلو المكاشفة، وقد قيل: تتلوها المكاشفة). ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 203/13.

(2) محمد العدلوني الإدريسي، معجم مصطلحات التصوف الفلسفي، م.س، ص.178.

(3) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 203/13.

(4) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.155.

هناك أمور يمكن أن نستشفها من كلام ابن عربي، سنجملها في الآتي:

- لا يجب على المختلي الانشغال بأحوال الناس وأمورهم؛ لأن ذلك يشكل إلهاءً له.

- غاية المختلي من خلوته أن يكون قريبا من الناس بجسمه بعيدا في سره.

- المختلي لا يطلق بصره متأملا في أفعال الخلق ناقدا أو ساخرا.

- الخلوة عودة إلى الخلاء الكوني تحقيقا للفراغ الأنطلوجي الذي يجعل المختلي يغيب عن أحوال الخلق حتى لا تبقى في قلبه ربانية لغير الله.

هذا المستوى من التجربة الروحية، يفتحنا على مستوى آخر من الكشف، هو الكشف الخيالي. وقد عمد ابن عربي إلى التمييز بينه وبين الكشف الحسي. يقول: «وأما التفرقة بين الكشف الحسي والخيالي فنبينه. وذلك إذا رأيت صورة شخص، أو فعل من أفعال الخلق أن تغلق عينيك، فإن بقي لك الكشف فهو خيالك، وإن غاب عنك فإن الإدراك تعلَّق به في الموضع الذي رأيته فيه. ثم إذا لهيت عنه واشتغلت بالذكر انتقلت من الكشف الحسي إلى الكشف الخيالي، فتتنزَّل عليك المعاني العقلية في الصورة الحسية، وهو تنزل صعب»[(1)].

يطلعنا هذا الكلام على حقيقة جلية، وهي أن الكشف الخيالي لا يتأتى إلا «بالذكر»[(2)]، الذي يعيد السالك إلى جذوره الأولى، حيث انبثاق كينونته. فالذكر بوصفه ممارسة قلبية قوامها الذوق، يجابه به ومن خلاله السالك النسيان الذي يتهدده في كل لحظة وحين. دلالة ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف/ 24). ذلك أنه لا سبيل إلى الترقي في مدارج الخلوة إلا بالذوق؛ لأنه «أول مبادئ التجليات الإلهية المؤدية إلى الشرب»[(3)].

3. العزلة مؤانسة ومكاشفة:

تضافرت عوامل عدة لخلق حالة قلق وتوتر في المناخ الاجتماعي العام، ومن هذه العوامل العزل، أو التباعد الاجتماعي الذي أسهم في زيادة معدلات الاكتئاب، والشعور بالوحدة بسبب

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.155.

(2) الذكر عند الشيخ الأكبر يأخذ تلوينات عرفانية متعددة. فتارة تتماشى نظرته مع من سبقه من المتصوفة (الذكر حضور يورث الشهود والفتح)، وتارة أخرى يضفي عليه لبوسا غاية في الفرادة. (الذكر هو الحضور مع الحق والفناء فيه والتحقق بالوحدة الذاتية معه). ينظر في هذا الجانب، (المعجم الصوفي)، م.س، الصفحات:487-488-489-490.

(3) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 217/13.

ضعف التفاعل الاجتماعي، فكان الخمول والكسل وتعطيل إتمام المشاريع قيد الإنجازوغيرها من الأمور علامات دالة على التضعضع النفسي للمحتجرين، مما جعل عدة دول تعمد إلى بث برامج متخصصة في تقديم الدعم النفسي. والحال أن العزلة من منظورها الصوفي حالة من حالات الانتشاء واللذة والفرح بالله وبذكره، وليست تذمرا واكتئابا، أو لنقل هي حوض أنس يغترف منه الصوفي ريًّا من الشراب. لأجل ذلك نجد ابن عربي قد وضع علاقة متينة بين الذكروالشراب، إذ يصيرالذوق بداية فتوحات الخلوة، وبعدها يكون الشرب فالريّ. فالشرب إنما هو شراب الحقيقة، أي أن الشارب يبقى طالبا للارتواء في كل حال من أحواله. يقول ابن عربي: «وإن سيقت لك مشروبات فاشرب الماء متلكِاً، وإن لم يكن فيها ماء فاشرب اللبن، وإن جمعت بينهما فَحَسنٌ. وكذلك العسل، وتحفَّظ من شرب الخمر، إلا أن يكون ممزوجا بماء المطر، فإن كان بماء الأنهاروالعيون فلا سبيل إلى شربه. واشتغل بالذكرحتى يفرغ عنك عالم الخيال، ويتجلى لك عالم المعاني المجرد عن المادة»[1].

يقيم ابن عربي في مسرح الخلوة تفاعلات عرفانية، تَنْشط تحت سماء الذكر، جاعلا الشرب يأخذ تلوينات تتناغم ومقام المختلي، فوجه رسالته إلى السالك بشرب الماء أولا، لأنه بشربه للماء يشرب «سرالحياة»[2]، ثم إنه إن فقد الماء، أوعزعليه طلبه، فليشرب اللبن؛ لأن بياض اللبن يجعل القلب «منزها عن الشهوة»[3] حتى يتسنى له تحصيل «علم الأسرار»[4] التي جاء اللبن دالا في رمزيته عليها. أما العسل فقد استلهم ابن عربي رمزيته من النحل الذي أوحى الله إليه. بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل/68). لذلك جاء في بعده السيميائي دالا على «علم الوحي بضروبه، ولهذا تصعق الملائكة عندما تسمع الوحي كما يسكرشارب الخمر»[5]. ودعا إلى شرب الخمرباحتراس واحتراز، مشترطا أن يكون الخمرممزوجا بماء المطر، لا بماء الأنهاروالعيون. والحق أن في هذا التحفظ، ما يُبِين عن حقيقة الخمرة المتحدث عنها. فالخمرة التي امتزجت بماء المزن، إنما هي خمرة علوية سماوية،

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوارفيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.155-156.

(2) زكي نجيب محمود، طريقة الرمزعند ابن عربي في ديوان ترجمان الأشواق، مقال ضمن الكتاب التذكاري محيي الدين ابن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده، دارالكتاب العربي للطباعة والنشربالقاهرة، 1969م، ص.86.

(3) زكي نجيب محمود، طريقة الرمزعند ابن عربي في ديوان ترجمان الأشواق، م.س، ص.77.

(4) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، م.س، ص.1076.

(5) المرجع نفسه.

على خلاف الممتزجة بالأنهار والعيون، فهي أرضية سفلية. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن الخمرة السماوية ترتبط ارتباطا وثيقا بمجلس الذكر، وما يصاحبه من صعق، وسكر، ومحق. فيغيب المختلي عن عالمه الموضوعي. في حين ترتبط الخمرة السّفلية بالرعونة والنشوة الماديتين. يقول ابن عربي: «واشتغل بالذكر حتى يتجلى لك مذكورك، فإذا أفناك عن الذكر به فتلك المشاهدة أو النومة، وسبيل التفرقة بينهما أن المشاهدة تترك في المحل شاهدها، فتقع اللذة عقيبها، والنومة لا تترك شيئان فيقع التيقظ عقيبها والاستغفار والندم»[(1)].

بنبرة عرفانية حميمة، وبنبض صوفي دافئ، يتوجه ابن عربي إلى المحتجرين القابعين في دهاليز منازلهم، وإلى الحيارى والمعذبين نفسيا، وإلى التائهين في دروب الحياة المادية، ليقول لهم: (اشتغلوا بالذكر حتى يتجلى لكم مذكوركم)، لتُغمر كياناتكم أنسا وسكينة، فرحا وطمأنينة، يقينا وثقة في أحرج الساعات التي تمرون منها؛ لأن الذكر أهم مراسم السالكين في الطريق الصوفي وأعظمها. غايته طرد الوساوس والأوهام عن النفس، ونسف حالة الشرود التي تَسِم العقل البشري. وتبديد الكآبة والحزن، كما أنه يخلص الذاكرة (من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق)[(2)]. وأسمى تحقق يمنح للمختلي القائم بطقس الذكر، أن يتجلى له مذكوره، كما أشار إلى ذلك ابن عربي آنفا. والتجلي هنا إنما هو انكشاف الغطاء عن الكون، وانتصار البكارة على المرجعية، فتتواتر البراهين على قلب العارف، ويتلقى ما يرد عليه بعد اختراق الحجب المانعة من الرؤيا. أو لنقل بلغة ابن عربي: إن التجلي «هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب بعد الستر»[(3)].

كأني بابن عربي يريد أن يقول للسالك: إذا لم يكن قلبك منفتحا على الآفاق، فلا سبيل إلى الخلوة أو المكاشفة والمشاهدة. إذ إن الخلوة ليس دعوة للركون إلى الذات، بل هي شفاء من داء الزمنية، واشتياق دائم إلى المحو والغيبة والفناء والمحق. «فإن لم تقف معه رفع لك عن المحرك، فإن لم تقف مُحيت ثم غُيِّبْتَ ثم أفنيت ثم سُحقت ثم مُحقت حتى إذا انتهت فيك آثار الماحي وإخوانه أُثْبِت ثم أُحْضِرت ثم أبقيت ثم أجمعت ثم غُيِّبْت، فخُلِعت عليك الخلع التي تقتضيها»[(4)].

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.156.

(2) عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992، ص.277.

(3) ابن عربي، الفتوحات المكية، م.س، 205/13.

(4) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.157.

لا جرم أن إغفاءة الخلوة صحو لذيذ، يتجاوز نقائص اللحظة الراهنة التي اصطبغت بسأم الجائحة، لتعيد ثبات الإنسان واستقراره على عرش الحياة. إنها مملكة يعمرها المختلي ويملؤها بذاته، فلا يسعه منها فيها غيره. يقول ابن عربي: «ثم إن الله تعالى يعرض عليك مراتب المملكة ابتلاءً، فإن رتب لك العرض، فإنك ستكشف أولا على أسرار الأحجار المعدنية وغيرها، وتعرف سر كل حجر وخاصيته في المضار والمنافع، فإن تعشقت به أبقيت معه وطردت ثم سلب عنك حفظه فخسرت. وإن استغنيت عنه واشتغلت بالذكر ولجأت إلى جناب المذكور رفع عنك ذلك النمط وكشف لك عن النباتات، ونادتك كل عُشْبة بما تحمله من خواص المضار والمنافع، فليكن حكمك معها حكمك أولا. وليكن غذاؤك عند الكشف الأول ما كثرت مرارته ورطوبته، وفي هذا الكشف الآخر النباتي ما اعتدلت حرارته ورطوبته، فإذا لم تقف معه رفع لك عن الحيوانات فسلمت عليك وعرفتك بما تحمله من خواص المضار والمنافع وكل عالم يعرفك بتسبيحه وتمجيده»(1).

إن القائم بالعزلة، إذا كان لا يلمح إلا الحق في كل مشهد وجودي، فهو صاحب خلوة وتجلٍ شهودي. وساعتها تجري محادثة الحق سرا، حيث لا أثر لوجود السِّوى. فيظهر «الوجود المسمى باسم النور، وهو ظهور الحق بصور أسمائه في الأكوان التي صورها، وذلك الظهور هو نفس الرحمان الذي يوجد به الكل»(2).

هناك لطيفة ألمع إليها ابن عربي في النص أعلاه حين أشار إلى أن العزلة يتولد عنها كشف تُدرك من خلاله حياة الجماد والنباتات. حيث يبدو صاحب الكشف كطائر نوراني يعبر ما وراء الطبيعة. إذ إنه بفضل الخلوة التي فتحته على الخفي واللامرئي، يتفاعل مع أدق مكونات الوجود، جمادا كان أو حيوانا. وهذا ينبئ عن خرق العادة التي غشيت الذهنية الماضوية الرسوبية، الكابحة لجماح الإبداع في الذوات، والكاتمة لأنفاس كل محاولة تتغيا العلو على العدمية وعلى المتاهات الحارقة، للاتصال بعوالم الطهر الناطق محبةً ورحمة. هذه الذهنية أرخت بظلالها على العالم المادي بأسره، فعاثت في الوجود فسادا وفوضى، ملوثة طهره، ومغيّرة معالمه، حتى أثمر طريقا ذا نتوءِ يَخِزُ كل عابر عليه فيدمي قلبه قبل قدميه.

أيقظت جائحة كرونا الوعي الحاد بالجوانب القيمية في حياة بني البشر، وحررت معنى الكينونة الإنسانية من التمثلات الباهتة التي نسجت حولها. ذلك أن العالم لم يعد أرضا حابلة

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.156.

(2) عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، م.س، ص.174.

بالزنابق، والآس، والنسرين، بل صار أرضا تروي قصة الغرق في الهباء والتيه، وتروي معها تضعضع بنيان العولمة والنبوءات التي لُفّت حولها. وإذا كان الزمان تكرارا لا نهائيا للأحداث، تُرى هل سينبثق صوت الأخلاق من رماده ليجابه الفوضى التي تتلبس العالم؟ ويدعو البشرية إلى التعامل مع كائنات الوجود بطريقة مخصوصة قائمة على التواصل والتفاعل، حتى تتحول تراجيديا الوجود البشري إلى واقع عرفاني مفتوح على أبجديات عذراء، مكتنزة حبا، وجمالا، وجلالا. فيفهم الإنسان - حينها - أن لكل عالم من عوالم الخلق صوتا وحضورا وأثرا، كيفما كان تشكله وانبثاقه، بما في ذلك الأشياء الصغيرة الرابضة في زوايا الإهمال والنسيان، وحينها أيضا يتقن فن الاستماع إلى نداءاتها، إذ إن كل مخلوق من مخلوقات الوجود يُعرّف الإنسان بطريقة تسبيحه وتمجيده. وإتقان فن الإنصات إلى تسبيح المخلوقات إنما هو كسر للنمطية في التعامل مع مخلوقات الوجود. «فما كان خرق العادة في تسبيح الحصى...وإنما انخرقت العادة في تعلق أسمائهم به».[1]

هكذا تُحرر الخلوة الصوفية الذات من إسار النفعية وعقال البراغماتية، لتجعلها فاعلة ومنفعلة في الآن نفسه. وتفض الحصار المضروب على الإدراك السمعي البصري، ليعبر السالك إلى عالم الجماد والحيوانات، فيقيم حوار تفاعلٍ معه، مُصِيخا السمع إلى نبضها الدافق في نسغ الوجود. لقد أخذ الحق بأبصار العوام وسَمْعِهِم عن إدراك حياة هذه المخلوقات التي لم تنل كبير عناية في هذا الوجود المشبع أنانية، لقد هُدر حقها من الرعاية الكونية لغياب قانون ينظم حياتها، وانتفاء عقلٍ يعقلها عن التصرف فيما لا ينبغي. لقد رأت البشرية بأم عينيها الجوع الذي يمزق المشردين وأطفال الشوارع النائمين على الأرصفة أو جوار المحلات المغلقة، ولولا بعض أصحاب القلوب الرحيمة الذين تفطنوا لأمرهم فوفروا لهم مراكز إيواء مؤقتة، وبعض الطعام لكانوا هلكوا من شدة الجوع والإهمال. أما حال قطط الشوارع وكلابها فلا يقل بؤسا وألما، لكونها حين فرض الحجر ما عادت تجد فتاتا وبقايا طعام تقتات عليه إلا القليل اليسير. فالخطاب الصوفي يعلم الإنسان الإنصات إلى أوجاع كل المخلوق دون استثناء، لأنه ليس وحده على هذه الأرض، كما أن عليها ما يستحق الحياة كذلك.

وفي مناسبة عرفانية أخرى، نجد ابن عربي بعد وصف مظاهر التجلي والمكاشفة التي حصلت للمختلي جراء انغماسه في طقس الخلوة، واشتغال قلبه بذكر الله الذي يحدث دفئا روحيا، ينتقل بطريقة تدرجية للإبانة عن المراحل التي يقطعها السالك في معراجه الكشفي.

(1) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، م.س، ص.967.

يقول: «ثم بعد هذا يكشف لك عن عالم سريان الحياة السببية في الأحياء وما تعطى من الأثر في كل ذات بحسب استعدادات الذوات، وكيف تندرج العادات في هذا السريان»[(1)].

يشترط ابن عربي في هذا المقام استعدادا ذاتيا يضمن للسالك القدرة على استكناه عالم الموجودات، فيحس إحساس علمٍ بسريان الحياة في كل الموجودات، لأن كل مخلوق مرهون بخالق، ذلك أن تشكل الحياة يستند إلى الاسم الإلهي (الحي). والحق أن «الحياة السارية في الأكوان غابت عن أبصار العامة؛ لأنهم يجعلون شرطها الحس، فكل من له ملكة الحس فهو حي. إلا ابن عربي جعل شرطها العلم. ولذلك استطاع أن يفيضها على كل الكائنات من حيث إن كل كائن يسبح فهو عالم بتسبيحه، وإن كنا نحن لا نفقه تسبيحه»[(2)].

هكذا يرصع ابن عربي فسيفساء الحياة الفطرية للكائنات، منطلقا من عتبة منطقية أسسها على مقدمة تقول: كل شيء يسبح بحمده ونتيجة تقول: إذن كل شيء حي.

4. الخلوة فضاء نوراني:

في عالم التباعد الاجتماعي والإغلاق والعزل الذي فرضته كرونا أدرك الإنسان قيمة الفضاء في حياته، سواء أكان فضاءً اجتماعية (مقاهي- دور سينما - أندية رياضية – مطاعم – ملاهي ليلية - مراكز ترفيهية..) أو فضاء ثقافيا (مدرسة - دور ثقافة - مسارح..) أو فضاء دينيا (الكعبة المشرفة - مساجد - زوايا..) وغيرها من الفضاءات، فحن إليها حنينا شديدا وهو مركون في زوايا منزله. لكن الصوفي يعرج بخلوتها إلى عوالم غير مرجعية تنأى عن التحديد والتمفصل والتشكيل. يقول ابن عربي: «واعلم أن الإنسان إذا زهد في غرضه، ورغب عن نفسه وآثر ربه، أقام له الحق عوضا من صورة نفسه، صورة هداية إلهية، حقا من عند حق، حتى يرفل إلى غلائل النور، وهي شريعة نبيه ورسالة رسوله. فيلقى إليه من ربه ما يكون فيه سعادته»[(3)].

ذلك أن القائم بالخلوة لا يمكنه أن ينعم ويسعد بنور الحقيقة ما لم يحقق هذا الاتصال الرباني الذي يمده بالمعارف اليقينية؛ أي أن ذات الصوفي يربطها خيط نوراني من خلاله تضمن صدق رؤيتها، فتكون اللوائح عطاء للسالك الذي يرتقي في السلم الروحي من مقام

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.156.

(2) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، مرجع سابق، ص.364.

(3) محمود محمود الغراب، الرؤيا والمبشرات من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، ص.12.

إلى مقام. وهي مؤشر على بداية الصعود كما يدل على ذلك التمفصل اللغوي للكلمة، لأنها لا تدوم، تلوح وتختفي كبارقة أو سانحة. وقد بين ابن عربي أنه ما إن تُرفع للمختلي اللوائح اللوحية حتى تتنوع عليه الحالات ويقام له دولاب يعاين فيه صور الاستحالات، وكيف يصير الكثيف لطيفا واللطيف كثيفا[1]. واللوائح أشد انفلاتا وهروبا من الطوالع، فهي تشبه البارقة في سرعة زوالها لذلك تتنوع الحالات على السالك. فتبدو روحه في حالة تجاذب بين الإشراق والسكون. لأنها «كالبروق ما ظهرت حتى استترت»[2]. أما الطوالع فأبقى وقتا وأدوم مكثا، فحين يرفع نور الطوالع يعاين السالك «آداب الدخول إلى الحضرة الإلهية، وآداب الوقوف بين يدي الحق، وآداب الخروج من عنده إلى الخلق»[3].

ولأن بيت الخلوة لا تكون فيه كوة يعبر من خلالها نور، فقد جعل ابن عربي النور يرتبط «بمبدأ الإدراك، فتكون الأنوار بمعنى الحقائق»[4]، أو هو «وارد إلهي يطرد الكون عن القلب»[5]. يقول ابن عربي: «فإن لم تقف لدعوته: رفع لك نور لا ترى فيه غيرك، فيأخذك فيه وجد عظيم، وهيمان شديد، وتجد فيه من اللذة بالله ما لم تكن تعرفها قبل ذلك، ويصغر في عينيك كل ما رأيته وأنت تتمايل فيه تمايل السراج»[6].

إنه سعي السالك للخروج من عالم الظلمة، وكثافة الواقعي، لنعيم التجلي، وكأن الظلمة تشكل غطاء على القلب يمنع الذات من الترقي في مراقي الكشف. والظلمة لها ارتباط وثيق بدواخل النفس البشرية، على اعتبار أن رهان المختلي يكمن في الانعتاق من عالم المادة، وصولا إلى مراتب الكمال. أو لنقل إن العزلة/الخلوة بطقوسها وأحوالها ومقاماتها وسيلة يتغيا من خلالها السالك طمس النقص الذي يكتنف العالم. وهي كذلك وأدٌ للزمان الفيزيائي الذي يخترم أعمار الخلائق ويصيب كينونتهم في مقتل، واحتفاء بالزمان الميتافيزيائي الموصول بالمطلق.

هكذا تعمل الخلوة الصوفية على جعل الأفق مفتوحا، لمواصلة الذات رحلة البحث الدائم عن الحقائق، بغية الوصول إلى المنازل التي تحظى فيها بالنوال. وكأن الخلوة وسيلة

(1) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.156.

(2) المصدر نفسه، ص.156.

(3) المصدر نفسه، ص.156.

(4) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، م.س، ص.1084.

(5) علي بن محمد الشريف ا الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985، ص. 396.

(6) رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، م.س، ص.158.

السالك للخروج من ظلمة الكثافة للدخول في نور اللطافة. فيصير النور حكمةً إلهية يسعى المختلي إلى الاقتباس من شعاعها السني قبسا يرتقي به في مدارج العارفان.

خاتمة:

انطلاقا مما قدمناه حول العزلة، بوصفها سلوكا عرفانيا، ووعيا أخلاقيا، وعلوا على النقائص وارتقاءً في سلم الإنسانية وصولا إلى مراتب الكمال، خلصنا إلى أن العزلة تتولد عن حنين ممتد في الزمان يحرك الذات نحو الأصل الأول الذي جاءت منه، ويرمي بها صوب البدايات الأولى، ساكبا في تضاعيفها ترياقا يشفيها من داء المادية ووجعها القاتل. هذا الداء الذي صير الحضارة المعاصرة يبابا، تتصحّر على أرضها قيم الروح، وينطفئ فيها مصباح الألوهة([1])حتى غرقت في سديم العنف والتدمير والأنانية. إن الخلوة تعلمنا أن نُغيِّب المكان من حيث هو تشكل جغرافي، لنحتفي بأرض الحقيقة الواسعة، أرض البدن التي أمرنا الحق أن نعبده فيها. وهذا هو السبب الذي يجعل صاحب الخلوة لا يضيق بمكان خلوته الجغرافي، رغم أن البيت المخصوص بالخلوة يكون ارتفاعه على قدر قامة المختلي، كما يكون طوله على قدر سجوده، وعرضه على قدر جلسته، ولا تكون فيه كُوّة يعبر من خلالها ضوء أو نور.

هكذا يعلو المختلي على المكان الجغرافي الضيق، ليلج بدنه الإنساني الواسع. وبعلوه هذا، يسمو على كل مشروطيات العالم الموضوعي، سعيا منه إلى تجاوز النقص الحاصل في العالم، بالانخطاف إلى رُتب الكمالية، حيث يصير الإنسان أزليا وكاملا في الآن نفسه. إن الخلوة إكسير العارفين، يمنح سعادة وانتشاء، ويخيط جروح الإنسانية المعذبة، ويفتح في وجهها باب السفر الروحي إن هي أرادت أن تنفلت من ربقة المادي واليومي، بحثا عن النوال والكمال في غيم الممكن.

(1) الألوهة بمفهومها الأكبري (مرتبة للذات لا يستحقها إلا الله، فطلبت مستحقها الله ما هو طلبها. والمألوه يطلبها وهي تطلبه والذات غنية عن كل شيء)، ينظر في هذا الصدد: المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، لسعاد الحكيم، م.س، الصفحتان: 85-86.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، 1980م.
- ابن عربي، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، المجلد الثاني، الانتشار العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ب.ت.
- أبو القاسم القشري، الرسالة القشرية، تحقيق: العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1989م،
- حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987م.
- كي نجيب محمود، طريقة الرمز عند ابن عربي في ديوان ترجمان الأشواق، مقال ضمن الكتاب التذكاري محيي الدين ابن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، 1969م.
- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م.
- عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى.1992م.
- عدنان الحسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1979م.
- محمد العدلوني الإدريسي، معجم مصطلحات التصوف الفلسفي، دار الثقافة، المغرب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002م.
- محمد بن عبد الجبار بن الحسين النفّري، كتاب المواقف والمخاطبات، ضبط وتحقيق: أرثر يوحنا أربري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1997.
- محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الطبعة الأولى، 2001م.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.